الحديث النبوي مكانته اللغوية وأثره في الدرس اللغوي بين الأصالة والمعاصرة.

آسيا نعماني: أستاذة مؤقتة
كلية الحقوق جامعة بومرداس

تبرز المنظومة الفكرية الإسلامية أن مهمة الحديث النبوي تتمثل أولا قبل كل شيء في شرح كلام الله وتبيان مقاصده ومعانيه، وتفسير غريبه وتفصيل مجمله لكن أهميته لا تتوقف عند ذلك، فمن الوجهة اللغوية يعد الحديث النبوي مادة لغوية أثّرت أيما أثر في الدراسات والأبحاث اللغوية العربية بل أثرت اللغة العربية وزادتها تألقا وجمالا وثراء وشرفا على شرفها ، فلا يوجد نص لغوي بشري له من الأهمية والثراء ما للحديث النبوي، بل من نصوص الحديث النبوي ما أسس لقاعدة نحوية أو صرفية أو بلاغية أو دلالية، مثلما أسس لقاعدة فقهية أو أصولية. فكيف سخر علماء اللغة الحديث النبوي لخدمة اللغة العربية ؟ وما هي الشواهد التي تدل على أنه كان مصدرا لغويا؟ وإلى أين تتجه الدراسات والأبحاث اللغوية المتعلقة بالحديث النبوي؟. يعد الحديث النبوي الزاد اللغوي الذي يتزود منه الباحث في علوم اللغة في النحو والبلاغة والمتخصص في علم المعاجم واللهجات، فنراه يمد هؤلاء جميعا وغيرهم بالمادة اللغوية المثلى فيصل بهم إلى أعلى مراتب البلاغة وأرقى مراتب الفصاحة ولا مجال للاستغناء عنه، وهو المصدر الثاني من مصادر اللغة العربية بل وأصل من أصولها، يلتف حوله العلماء والباحثون وطلاب العلم كل حسب تخصصه.

كما أن مكانة الرسول في المنظومة الفكرية الإسلامية تفرض توجيه الأبحاث اللغوية إلى مدونة الحديث النبوي المتمثلة في كتب الصحاح وهي أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى (صحيح البخاري، صحيح مسلم ، صحيح ابن ماجة، صحيح الترمذي، صحيح النسائي، صحيح أبو داود) فقد اجتمعت في هذه المدونة اللغوية البلاغة مع حسن الإفهام والحكمة مع براعة نظم الكلام والفصاحة مع الإلهام، كيف لا والمصطفى صلى الله عليه وسلم المؤيد من عند الله والمبصر بالوحي فتجلى ذلك أكبر تجلي في الحديث النبوي لفظا ومعنى.

كان من حكمة الله تعالى ورحمته أن سخر علماء الحديث لجمعه وتدوينه وسخر من بعد علماء اللغة ليثروا اللغة العربية بما فتح الله عليهم من تأمل وتبصر في لغة الحديث، فأفادوا منها في علوم العربية المختلفة، فكان اعتناء المحدثين بالحديث النبوي جمعا وحفظا وتفسيرا وشرحا وقراءة، خاصة وأن الحديث ما هو إلا تفصيل لأحكام القرآن وبيان لمجمله و توضيح لغريبه ، كما اعتنى المحدثون أيضا بالرواة وخاصة في مسألة توثيق الرواية فاعتنوا بالسند والمتن أيضا، أما مسألة تدوين الحديث«فقد كانت ضرورة فرضتها اتساع الرقعة الإسلامية والابتعاد عن موطن العربية في الجزيرة زمانا ومكانا، وبالرغم من العناية الفائقة في استخلاص الحديث المدون بمعارضة الكتبة فإنه تعرض لآفات في المجال اللغوي منها الرواية بالمعنى ، التصحيف، الوضع »[1].

ولعل هذا ما وسع دائرة الخلاف حول جواز الاحتجاج بالحديث النبوي في مسائل اللغة بين قائل بصحة وجواز الاحتجاج والاستشهاد بالحديث النبوي وبين قائل بضد ذلك بحجة أنه تعرض لتغيير في اللفظ أو للوضع. وبعيدا عن مدار هذا الاختلاف فإن هذه المقالة جاءت لتخدم الأصل الثاني من أصول العربية وهي فرصة للإسهام في إبراز خصائص الحديث النبوي والوقوف على مختلف المواضع والأبحاث اللغوية والبلاغية التي وردت في لغة الحديث النبوي، من خلال تحليل نماذج نبوية وطبعا رصد الظواهر والتراكيب المختلفة في لغة الحديث النبوي ولعل انشغال الباحثين بالقرآن الكريم باعتباره المدونة المقدسة التي تعلو ولا يعلى

عليها جعل الأبحاث اللغوية المتعلقة بالحديث النبوي قليلة، مع أن الحديث النبوي يأتي في المرتبة الثانية من حيث الأهمية والثراء .

وبالرجوع إلى أهم الكتب التي تناولت الحديث النبوي من الوجهة اللغوية والبلاغية وتحدثت عن خصائصه الأسلوبية في الدراسات المعاصرة نجد مصطفى صادق الرافعي الذي دعا الأدباء والباحثين إلى البحث في هذه المدونة المقدسة، بعدما أفرد للبلاغة النبوية حيزا في أبحاثه اللغوية تحديدا في كتابه الموسوم إعجاز القرآن والبلاغة النبوية الذي أخرجه على درجة كبيرة من الإحكام والإتقان بما فتح الله عليه من حسن تأمل وبعد نظر ونضج تفكير ووعي لغوي.

والحق أن وصف النص النبوي بالثراء ليس من باب الغلو ولا المبالغة إنما هو الحقيقة التي يتفطن لها الباحث الحاذق واللغوي الخبير بعلوم اللغة وفنونها، إذ يجد أنه مصدر للمعجمي والباحث في علم الدلالة، والنحوي، والمنشغل بعلم الصرف والأقيسة، والبلاغي الباحث عن الفصاحة وأوجه البراعة وعن صنوف الأمثال وضروبها، بل ومنه يتعلم الكاتب أصول الكتابة الفنية ويتعلم منه الخطيب براعة الحجاج والقدرة على الاقناع ، فلا عجب إذن أن يكون الحديث النبوي حاضرا في مجالس علماء اللغة ومحور اهتمامهم ومدار حديثهم، و سيبين المقال هنا عن تأثير الحديث النبوي في كل مستوى من مستويات اللغة. فمثلا على **المستوى المعجمي** نجد في مدونة الحديث النبوي ثروة لغوية استعان بها صناع المعاجم في تأليف معاجمهم، وبالرجوع إلى أمهات كتب المعاجم العربية يلاحظ الكم الهائل من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم التي استعان بها أصاحب المعاجم في تفسيرهم وشرحهم للألفاظ والكلمات ، فيبدأ في شرح اللفظة بما في كتاب الله ثم يتبعها بما روي عن رسول الله مراعيا السياقات المختلفة التي ترد فيها الكلمة، وجولة سريعة في معجم العين للخليل أو في لسان العرب لابن منظور تثبت ذلك: فمثلا من العين وفي باب السين يقول الخليل :« والسبب كل ما تسببت به من رحم أو يد أو دين وكل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سبب النبي صلى الله عليه وسلم وهذا في الحديث.» [2] وفي لسان العرب **مادة برر** نجد ابن منظور

يستشهد على جمع البر على البررة بقوله:« وفي الحديث؛ الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة أي مع الملائكة»[3].

من جهة أخرى نجد في المدونة التي تركها الرسول صلى الله عليه وسلم ثروة لغوية تعكس البيئة والعصر الإسلاميين يستفيد منها المتخصصون في **علم اللغة الإجتماعي** فهذه المدونة تحتاج إلى دراسة لغوية علمية معجمية ممنهجة بما أنها تعكس عصرا من عصور اللغة العربية، بل وتظهر التطور و التغيير الدلالي من صدر الإسلام إلى ما بعده، وفي هذا السياق يقول صاحب كتاب القرآن والحديث مقارنة أسلوبية :« ما كشفت عنه المقارنة الموضوعية التي لا دخل فيها للعواطف أو الميول او العقيدة هو أن كثيرا من الألفاظ الموجودة بوفرة في الأحاديث والمرتبطة بالحياة اليومية والحياة الاجتماعية والنشاط الحربي والبيئة الطبيعية بل وبمجال العبادة والدين لا وجود لها في القرآن».[4]

ومن هذا القول يستدل على أن الثروة اللغوية النبوية امتداد واستمرار وتكملة للثروة اللغوية القرآنية ومن ثم العربية، وهذه خدمة جليلة يقدمها الحديث النبوي لعلماء اللغة وعلماء الإجتماع أيضا بما أنه يؤرخ بطريقة أو بأخرى إلى عصر من العصور ويعكس حياة مجتمع بأكمله، ونظرة خاطفة في فهرس صحيح البخاري تجعل القارئ الكريم يرضي تساؤلاته عن طبيعة الحياة يومذاك. فمثلا فيما يتعلق بألفاظ الطعام والشراب من ذلك:« الأقط والزبد والجبن والخبز والدباء والحيس والدقيق والسمن والسويق والقديد ومن ألفاظ الشراب البتع والبسر والتمر والزبيب والزهو والفضيح والمزر والنبيذ».[5]

ولعل في أبواب الاطعمة والذبائح والنكاح والزكاة والطهارة والطب يلحق بذلك مسائل الزينة والحرب والسلم دليل على ذلك.

أما على **المستوى الدلالي**: فمن خصائص اللغة أنها تمر بمراحل تتغير فيها مدلولات ألفاظها حسب الحاجة والاستعمال البشري، ولعلنا نجد في الحديث النبوي ما يعكس هذا التطور والتغير على المستوى الدلالي للألفاظ، بل وتعج مدونة الحديث بالظواهر الدلالية التي أقر علماء الدلالة وجودها في اللغة العربية

ومن هذه الظواهر نذكر: الترادف والتضاد والمشترك اللفظي ، فقد أثرى الحديث النبوي اللغة العربية بالألفاظ التي تدخل ضمن واحدة من هذه الظواهر الدلالية ، وهذه خدمة عظيمة وفائدة جليلة تؤكد أن الحديث النبوي مصدر لغوي لعلماء الدلالة فقد أثرى اللغة بالسياقات التي تحدد الفروق الدلالية بين الألفاظ ومن ثم سهل على اللغويين الاستشهاد بأحد تلك السياقات في أبحاثهم في علم الدلالة، ومن أمثلة التضاد التضاد بين لفظتي متفرق ومجتمع في قوله صلى اللّٰه عليه وسلم:« ولا يجمع بين متفرق ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة».[6] وبين اليسر والعسر في قوله صلى اللّٰه عليه وسلم: « يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا».[7]ومن المتضادات المذكورة ظهر وبطن، هزل وجد، أجر ووزر، عاجل وآجل بغض وحب.

من المشترك لفظ إمام الذي الذي استعمل في الحديث لمعان مختلفة نذكر منها إمام الصلاة والحاكم، ومثال الإمام بمعنى إمام الصلاة من حديث الاغتسال والخروج إلى صلاة الجمعة يقول المصطفى صلى اللّٰه عليه وسلم: « ثم إذا خرج الامام أنصت غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى».[8] ومن ذلك أيضا: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة انصت والامام يخطب فقد لغوت».[9] ومثال لفظة إمام بمعنى الحاكم قوله صلى اللّٰه عليه وسلم: «فالإمام الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته».[10]وأيضا قوله « إنما الامام جنة يقاتل من ورائه ويتقى به فان أمر بتقوى اللّٰه وعدل فإن له بذلك أجرا وإن قال بغيره فعليه منة».[11] وقد استدل الأصمعي بالأحاديث النبوية واستعان بها في كتابه الموسوم بـ **ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه** من ذلك استدلاله على أن عطس وكدس مترادفان في المعنى إذ يقول:« عطس يعطس عطاسا وعطسا، وكدس يكدس كداسا، قال رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم: إذا بصق أحدكم في الصلاة فليبصق عن يساره أو تحت رجله فإن غلبته كدسة أو سعلة ففي ثوبه.» [12]

وفي موضع آخر يستدل بالحديث على أن الفعلين يتكفف ويسأل من المترادفات يقول: « عيال فلان يتكففون ويسألون قال صلى الله عليه وسلم: لأن تدع ورثتك أغنياء خير من ان تدعهم عالة يتكففون الناس.» [13]

ومثال ثالث يكتمل به المقال وهو استدلال الأصمعي على معنى غط بالفعل مقل إذ يقول:« غط فلان فلانا ومقله سواء ومقله غمسه وغطه في الماء، قال عليه الصلاة والسلام : إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فامقلوه فإن في أحد جناحيه سما وفي الآخر شفاء وإنه يقدم السم ويؤخر الشفاء» [14] .

ومجمل القول فيما سبق أنه في الحديث النبوي الكثير من السياقات الدالة على المتضادات والمترادفات وعلى المشترك اللفظي والملاحظ أن هذه الثنائيات اللغوية ترد في حديث واحد مثلما ترد في أحاديث متفرقة فهذا مدخل لغوي مهم لمعرفة السياق اللغوي والمقامي لاستعمال اللفظة في اللغة العربية.

أما على المستوى النحوي والصرفي فلعل هذا المقال جاء لينصف الحديث النبوي ويبرز دوره وأهميته في الدراسات اللغوية العربية قديمها وحديثها لذلك ليس المقام هنا للدخول في جدال حول صحة وجواز الاحتجاج بالحديث النبوي وإن كان أهل العلم قد فصلوا في هذه المسألة ويكفي ان نذكر هنا أن ثلة ليست بالقليلة من اللغويين قد أجازوا الاستدلال بالحديث النبوي نذكر منهم:« ابن خروف، والصفار، والسيرافي، وابن عصفور، وابن هشام، وغيرهم كثير» [15] .

أما مهمة هذا المقال فهي الكشف عن الوجوه التي أفاد فيها النحو العربي من الحديث النبوي على سبيل المثال لا الحصر، ولعل أول وجه من هذه الأوجه هو أن النحو العربي أفاد من الحديث في مسألة جمع اللغة أو ما يعرف بالرواية الشفوية، حيث اشترط علماء اللغة أن يكون الراوي ثقة ومشهودا له بالصدق والأمانة وهي نفس الشروط التي اشترطها علماء الحديث في الرواة بل وتشددوا في ذلك، فكان لعلماء الحديث الفضل في شق هذا الطريق ووضع المنهج، فجاء بعدهم علماء اللغة وساروا على دربهم في رواية اللغة بشهادة أهل اللغة أنفسهم على رأسهم ابن جني، الذي نراه يقر لأهل الحديث بفضلهم وأسبقيتهم في كتابه الخصائص

حيث وضع بابا أسماه **باب في صدق النقلة وثقة الرواة والحملة** في سياق حديثه عن الرواة الثقة الذين عنهم أخذت اللغة بدءا بأبي عمرو بن العلاء والأصمعي وأبو زيد الأنصاري وأبو عبيدة و الكسائي وسيبويه والأخفش، ويقول عن أبو العباس المعروف بثعلب:« ولله أبو العباس أحمد بن يحيى وتقدمه في نفوس أصحاب الحديث ثقة وأمانة وعصمة وحصانة وهم عيار هذا الشأن وأساس هذا البنيان».[16]

وإذا كان علم النحو مرتبطا بظهور اللحن عند العرب فإن في نصوص الحديث النبوي ما يعيب هذه الظاهرة ويدعو إلى إصلاحها فقد روي عن الرسول صلى الله عليه وسلم انه قال بعدما سمع رجلا يلحن في كلامه « ارشدوا أخاكم فإنه قد ضل»[17] فسمى اللحن ضلالا لما علم بالخطر الذي يلحقه بمعنى الكلام .كما لا يكاد يخلو مصنف من أمهات الكتب العربية من استشهاد بالحديث النبوي خاصة في المسائل التي قلت نصوص الاستشهاد فيها منها مسألة بناء أسماء الأفعال من باب انها متضمنة معنى لام الأمر وهي مسألة أثارها ابن جني في خصائصه قائلا:« أوَ لا ترى أن البناء الذي سرى في باب صه ومه وحيهلا ورويدا وإيه وأيها وهلم ونحو ذلك ...إنما أتاها من قبل تضمن هذه الأسماء لام الأمر لأن أصل ما صه اسم له هو اسكت لتسكت كقراءة الرسول صلى الله عليه وسلم " فبذلك فلتفرحوا" وكذلك مه واسم اكفف والأصل لتكفف».[18]

كما احتج أبو زكريا الفراء على تأنيث معا مفرد أمعاء بقول الرسول صلى الله عليه وسلم « المؤمن يأكل في معا واحدة»[19]. وفيما يتعلق بالحروف احتج أبو علي الفارسي على معنى حرف اللام بقوله عليه الصلاة والسلام« صوموا لرؤيته أي بعد رؤيته»[20].

وقد ثبت أن علماء اللغة كانوا يجالسون علماء الحديث في مجالسهم ليسمعوا عنهم أحاديث رسول الله من ذلك ما رواه الأصمعي إذ يقول « كنت في مجلس شعبة فروى الحديث فقال: تسمعون جرش طير الجنة. فقلت: جرس.

فنظلي وقال خذوها عنه فإنه أعلم بهذا منا. وهو يشير إلى تمرس الأصمعي باللغة وإدراكه لمفرداتها التي حصلها عن طريق الرواية والمشافهة»[21].

أما الصرفيون فقد أفادوا من الأحاديث النبوية في الاحتجاج على الصيغ الصرفية والأوزان والأقيسة وأكثر ما ظهر ذلك عند علماء القراءات القرآنية الذين استعانوا بالأحاديث النبوية في التوجيه الصرفي للقراءات القرآنية، فنجدهم يستدلون على إحدى القراءتين أو على القراءتين معا بالأحاديث النبوية التي وردت فيها تلك الصيغة من ذلك قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا** ﴾ ﴿٦﴾ **المزمل**. قرأ أبو عمرو ابن عامر بكسر الواو (ـِوطئا) وقرأ ابن كثير والكسائي ونافع وحمزة بفتحها (وَطئا) [22]. وجاء في الصحاح: الوَطْأَة الأخذة الشديدة، ومنه أيضا وطِئْته بقدمي وتَوَطَّأته[23]، وفي ذلك حديث للرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيه :«اللهم اشدد وَطْأَتك على مُضَر».فالقراءة بالفتح موافقة للحديث النبوي ومثال آخرمن قوله تعالى:﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ** ﴾ ﴿١٥٩﴾ **الأنعام**.قرأ حمزة والكسائي (فارقوا) بالألف وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثيرو ابن عامر (فرَّقوا) بغير ألف[24] .وفي اللغة الفرق تفريق بين شيئين حتى يتفرقا ، وهو من فرَّق يفرق فرقا ، يقال فرقت بين الكلام ، وفرقت بين الأجسام. وفرقت بينهما فتفرقا[25] .وفي الأثر حديث للرسول ﷺ يقول فيه :«البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»[26] ومن القرآن قوله تعالى:﴿ وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴾ ﴿١٠٦﴾ **الإسراء**. وفارق الشيء مفارقة وفراقا : باينه والاسم الفرقة، ومنه تفارق القوم، وفارق فلان امرأته[27] ومن الحديث قول الرسول ﷺ : « من فارق الجماعة فميتته جاهلية[28]». أما ترجيح القراءة الثانية ففيما رواه أبو هريرة أن الرسول ﷺ كان يقرأ فارقوه بالألف[29] .

والمثال الثالث من قوله تعالى:﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسۡتَ**

﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٠٥﴾ الأنعام. قرأ ابن كثير وأبو عمرو(دارَسْتَ) وقرأ ابن عامر(درستْ) وقرأ حمزة والكسائي ونافع (دَرَسْتَ) [30] .

وأورد صاحب الصحاح:درستُ الكتاب درسا ودراسة، ودارست الكتب وتدارستها وادارستا أي درستها وفي حديث لرسول الله ﷺ يقول فيه :« تدارسوا القرآن لئلا تنسوه»[31]. أي اقرؤوه وتعاهدوه لئلا تنسوه، ودرس الرسم أي عفا وزال.

فمن قرأ (دَارَسْتَ) أراد معنى المشاركة والمفاعلة، والمقصود أنهم أي المشركين يقولون للرسول ﷺ عن القرآن الذي جاء به« دارست أهل الكتاب ودارسوك وذاكرتهم وذاكروك»[32] ، فهو ليس من عند الله بل قرأته عند أهل الكتاب من اليهود والنصارى كما قرؤوا هم عنك، وهذا قول باطل وكاذب بل هو من عند الواحد الأحد.

ولنا وقفة مع **المستوى البلاغي** والحق أن البلاغة النبوية امتداد للبلاغة القرآنية وذلك شرف عظيم أتاه الله رسوله الكريم، وقدسية الحديث النبوي هي امتداد أيضا لقدسية القرآن الكريم بما أن الحديث جاء ليشرح ويفسر ويفصل ويحدد ما جاء في القرآن الكريم، وقد تشرفت البلاغة العربية بأن أسست علومها من هاتين المدرستين، فلا عجب إذن أن نرى أرباب البيان يوصون من يتدرج في مراتب البلاغة أن يبدأ أولا بكلام الله تعالى ثم حديث رسوله صلى الله عليه وسلم ذلك أنه يعطي كلامه الفخامة والجزالة والرونق فيعرف من خلال مدارسته للحديث النبوي مواطن البلاغة وأسرار الفصاحة المودعة فيه ثم يعمل على محاكاته في صناعته الأدبية ، فمدارسة الحديث النبوي تورث صاحبها ملكة البيان والذوق الرفيع فيتمكن من تحديد مواطن الجمال الفني ويسعى بعدها إلى الابتكار والإبداع على منوالها.

ولعل المتصفح المتأني الذواق الباحث في لغة الحديث النبوي يدرك فعلا أن بلاغته صلى الله عليه وسلم استمرار وامتداد للبلاغة القرآنية، فتتكشف له طرائق تعبيرية متجانسة وملائمة للسياق الذي وجدت فيه ، فيقف عند جمالها

وحسها ويتبين له كيف أنها ثابتة في جميع النصوص النبوية فلا يخلو حديث منها من أحد أوجه البلاغة ومراتب البراعة مع رقي المعنى والقيمة الأدبية في كل حديث، ومرد ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بليغا فصيحا بارعا في ارتقائه في سلم البيان ينوع في أساليب كلامه حسب الأهداف وأحوال المخاطبين فيلائم بينهما فيأتي كلامه لطيفا خفيفا لا يمل ، يوظف التشبيه والمحسنات البديعية في موضعهما ويؤكد الخبر بمؤكدات مناسبة حسب الحاجة وأحوال المخاطبين على سبيل الاقناع أو ارضاء لمحدثه لما يحتاج من مبررات الترغيب والترهيب.

كما قد يحوي كلامه على أساليب العرض غير المباشر فنجده يستعمل التصريح والتلميح والتعريض في مواطنهم ، يضاف إلى ذلك المجاز والكناية والاستعارة ولتقريب الأفكار أكثر يعمل على الأسلوب القصصي والتشبيه التمثيلي وقد يستغني عن أسلوب ويأتي بآخر مراعاة لمقتضى الحال والمقام ، فكل حديث من أحاديثه صلى الله عليه وسلم ينبئ أنه صاحب الذوق الرفيع الذي يحسن استخدام فنون البلاغة بل وفنونا أخرى لم يعرض لها علماء البلاغة في مصنفاتهم فهو المحدث الذي ترك لنا من الروائع الكثير والذي أوتي جوامع الكلم.

ولنا وقفة مع قوله «أوتيت جوامع الكلم» [33] ، « فالكلم هنا جمع كلمة والجوامع جمع جامعة والمراد بذلك أنه صلى الله عليه وسلم أوتي الكلم الجوامع للمعاني»[34] وقد قسم ابن الأثير جوامع الكلم إلى قسمين الأول« ألفاظ تتضمن من المعنى ما لا تتضمن أخواتها مما يجوز أن يستعمل في مكانها »[35]. ومثل له ابن الأثير بقول الرسول صلى الله عليه وسلم يوم حنين «الآن حمي الوطيس»، فكلمة الوطيس مبتكرة لم يسبقه إليها أحد تضمنت من المعنى ما لا يؤديه غيرها في مكانها.

والقسم الثاني من جوامع الكلم يقصد به « الإيجاز الذي يدل به بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة أي أن ألفاظه جامعة للمعاني المقصودة لإيجازها واختصارها»[36].فأسلوب التعبير بالألفاظ القليلة على المعاني الكثيرة ظاهرة أسلوبية بارزة في الحديث النبوي.

أما عن حواره صلى الله عليه وسلم فإنه « يأخذ لكل حالة مقتضاها ولكل موقف لبوسه في نطاق من نصاعة البيان وسلاسة القول ورقة الحوار وسعة الصدر وجلال التسامح وكظم الغيظ ويسر الاقناع»[37].فقد كان صلى الله عليه وسلم حكيما في كلامه كيف لا وهو الذي كان يحدد الهدف من كلامه فيحسن اختيار الأسلوب الذي يوصله بأقصر الطرق إلى قلب سامعه ، واستمالته ومن ثم إقناعه وتحقيقه للهدف من حواره معه، ألا وهو الدعوة إلى الله، ولكل هدف مقامه وسياقه وأسلوبه بين التعزية والخطابة والتشريع والحماسة ، فمن بلاغته أنه يحسن طرق الملاءمة بين الحال والمقام وصاحبه، فيتحرى دائما الأسلوب المناسب لذلك ، فكان له عظيم الأثر في أصحابه إذ أنه كان عليما بأصناف المخاطبين خبيرا بأحوالهم النفسية والفكرية والاجتماعية العامة منهم والخاصة ،الأغنياء منهم والفقراء والأذكياء منهم والأغبياء .

ومظهر آخر من مظاهر البلاغة النبوية التي لا تزال تعطي ثمارها في الحقل اللغوي إلى يومنا هذا نلمسها في فن الخطابة الدينية الذي أسسه وأرسى دعائمه رسولنا الكريم فمن الافتتاح إلى الاختتام إلى عبارات الدعاء كلها ابداع نبوي نجد صداه اليوم عند الخطباء، ولعل الكم الهائل من الاهتمام الذي حظيت به خطبة الوداع اكبر دليل على أن الخطاب الاقناعي تأسس على يديه صلى الله عليه وسلم لما تضمنه حديثه عموما وخطبه خصوصا من أدوات الحجاج والاقناع والتأثير ويلحق بها فن الكتابة الأدبية والرسائل والرقائق باعتبارها شكلا ادبيا له أثره وإرهاصه في الحديث النبوي.

آخر شكل لغوي منبعه الحديث النبوي هو غريب الحديث ولعل اهتمام أهل اللغة بغريب الحديث يفسر أهميته ويدل على ذلك عدد المصنفات في غريب الحديث يذكر من ذلك « أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب، أبو العباس المبرد ،أبو بكر بن القاسم الأنباري، أحمد بن حسن الكندي وأبو عمر محمد بن عبد الواحد المعروف بغلام ثعلب، ابن قتيبة ، أبي عبيد»[38] .

وكان اعتناء هؤلاء جميعا بغريب الحديث من حيث اللغة والاعراب والمعنى لا من حيث الأسانيد والمتون وأسماء الرواة ولعل أشهر من كتب في غريب الحديث أيضا الهروي أبو عبيد الله الذي ألف مصنفا جمع فيه غريب القرآن مع غريب الحديث ورتبه ترتيبا ألفبائيا حقق الغرض والمقصد فاستعان به أهل اللغة وأهل الحديث على حد سواء.

ومن شواهد غريب الحديث« أن الأصمعي سئل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: الجار أحق بسقبه فقال: أنا لا أفسر حديث رسول الله ولكن العرب تزعم أن السقب اللزيق»[39].

كما أثبت ابن فارس بعض المعاني في العربية لم تظهر إلا مع الحديث النبوي نحو قوله صلى الله عليه وسلم « ما يحملكم على أن تتتايعوا في الكذب كما يتتايع الفراش في النار فقال أبوعبيد هو التهافت ولم نسمعه إلا في الشر»[40].

ويقول النضر بن علي « حضرت الأصمعي وقد سأله سائل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم: جاءكم أهل اليمن وهم أبخع نفسا ما معنى أبخع؟، قال يعني أقتل»[41].

ومن بين النصوص التي أدرجها اللغويون ضمن غريب الحديث ما جاء على لسان مالك بن غط في وفد همذان حين قال« يا رسول الله نصية من همدان من كل حاضر وباد أتوك على قلص نواج (الابل السريعة) متصلة بحبائل الاسلام لا تأخذهم في الله لومة لائم ، من مخلاق خارق ، ويام ، وشاكر عهدهم لا ينقض عن سنة ماحل (الساعي بالنميمة) ، ولا سوداء عنقفير (الداهية من دواهي الزمان) ما قام لعلع(اسم جبل) وما جرى اليعفور (الظبي) بصلع (الارض الجرداء[42])».

فكتب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم: « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى مخلاف خارف، وأهل جناب الهضب وجفاف الرمل مع وافدها ذي المشعار، مالك بن نمط ومن أسلم من قومه أن لهم فراعها(المرتفع من الأرض) ووساطها (ما اطمأن من الأرض) وعزازها (ما صلب من الأرض) ما أقاموا

الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها ويرعون عفاها(ما ليس لاحد فيه ملك) ، لنا في دفئهم وصرامهم(النخل) ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم منا الصدقة الثلب (الهرم من الإبل) والناب (المسنة من الإبل) والفصيل (الذي فصل عن امه) والفارض (المسن من الابل) والداجن (الشاة التي يعلفها الناس في البيوت) والكبش الحوري (جلود ماخوذة من جلد الظأن) وعليهم الصالغ (البقر والغنم الذي كمل وانتهى) والقارح (الفرس الذي دخل في السنة الخامسة)».[43]

وكتابه هذا يستدل به على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يكلم كل قوم بلهجتهم، وقد شهد له بذلك القاضي عياض حيث يقول:« وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحك الأفضل والموضع الذي لا يجهل ، سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف أوتي جوامع الكلم وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها في منزع بلاغتها حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله».[44]

ومما يستفاد من هذا الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عليما بلهجات العرب متقنا لفنون كلامهم واستعمالاتهم لألفاظها خاصة الغريب منها وكأنه واحد منهم ويشهد له بذلك « علي بن أبي طالب حين قال له: نراك تكلم وفود العرب بما لا نعرفه فمن علمك قال: أدبني ربي فأحسن تأديبي».[45]

فيمكن القول عموما أن الحديث النبوي يعكس ذلك الثراء اللغوي اللهجي السائد في شبه الجزيرة العربية فقد ترك لنا مدونة لهجية تفيد الباحثين في علم اللهجات لمعرفة الفوارق اللهجية بين القبائل العربية في شبه الجزيرة شمالها وجنوبها .

أما عن الدراسات السابقة والمعاصرة التي جعلت الحديث النبوي محورا لبحثها تبين لي وأنا أعد مادة هذا المقال أن الحديث النبوي كان ومازال يغري الباحثين بتناوله في أبحاثهم ونرى منهم من يؤثره على غيره من المدونات - لكن

تبقى البحوث قليلة في هذا المجال- بينوا من خلالها مكانته الرفيعة ومنزلته العظيمة، حيث عملوا من خلال تلك الأبحاث على إبراز الخصائص اللغوية للحديث النبوي واهتموا بمقاصده وإظهار قيمته في الحقل اللغوي، كل حسب اهتمامه وتخصصه بين باحث من الوجهة البلاغية وآخر من الوجهة النحوية وثالث من الوجهة الأسلوبية والتركيبية وعلى العموم فلا غرابة في ذلك فإن الحديث النبوي يشكل مدونة لغوية لا تضاهيها مدونة أخرى لذلك هو بحاجة إلى المزيد من الدراسات اللغوية والأدبية بل إن الحقل اللغوي هو الذي بحاجة إلى أن يرقي بالرقي اللغوي الموجود في الحديث النبوي.

لتتجه الأبحاث المعاصرة حول الحديث النبوي إلى البحث في بعده التداولي وذلك بإسقاط نظرية الحجاج وتحليل الخطاب على مدونة الحديث النبوي خاصة بعدما ظهرت نظريات لسانية ونصية أتت بمبادئ جديدة في دراسة اللغة يمكن استثمارها في الكشف عن خصائص الخطاب النبوي وآليته اللغوية، فلا بد من استثمار هذه النظريات التي يصلح منها طبعا على لغة الحديث النبوي مع المحافظة على خصوصية قائله صلى الله عليه وسلم وخصوصية اللغة التي قيل بها الحديث وخصوصية النص المقولن ودون أن ينقطع الباحث عن الأسس والمبادئ التي جاءت بها النظرية وبذلك يؤسس الحديث النبوي لنظرية لغوية في الخطاب تصلح لكل زمان ومكان.

والحق إن التحول إلى دراسة النص النبوي على أنه خطاب ضرورة مهمة باعتباره النص الثاني الذي أثر في الأمة في تفكيرها ومعتقداتها وعاداتها اللغوية وغير اللغوية ، وبدل في وجهتها في صدر الإسلام فكان لا بد أن يتحول البحث في الحديث النبوي إلى الوظائف التي يؤديها والكشف عن أدواته وفنياته وآلياته وأسراره اللغوية فهو خطاب مشحون بالوظائف اللغوية التي تحاور وتسرد، تؤكد وتجعل المتلقي يتفاعل ويستفهم ويقرر، فمهمة الباحثين اليوم هي الكشف عن الأدوات اللغوية التي تكفلت بتحقيق هذا كله، وكلها موجود في بنية الخطاب النبوي دون أن اغفل الذكر عن الخطاب التعليمي في مدونة الحديث وتقصي

أسسه اللغوية ومظاهره وآلياته ووظائفه الإبلاغية لتقعيد قوانين الخطاب النبوي، وتحديد أسسه ومن ثم تقعيد قواعد عامة للخطاب الإبلاغي والتعليمي من خلال تتبع نصوص الحديث وتحليلها وفق نظرية تحليل الخطاب في نسختها العربية ذلك أن الحديث النبوي خطاب تحققت فيه كل الدعائم والأسس ويخضع لمنهج لغوي يحتاج إلى أكثر من دراسة .

وبعد فإن الحديث النبوي أثرى المكتبة العربية من خلال الشروحات والتفاسير التي تناولته ويمكن القول أنه ميدان فسيح لكل لغوي أيا كان تخصصه فالمعجمي والنحوي والبلاغي والباحث في علم الدلالة والمتخصص في فقه اللغة واللهجات والدارس لعلم الاجتماع اللغوي كل هؤلاء وغيرهم يجدون في مدونة الحديث مادة لغوية تصلح لأبحاثهم، كما أن تتبع مظاهر وخصائص لغة الحديث تحتاج إلى جهد ضخم ومن الوقت الكثير ومن التفرغ التام ما يمكن الباحث من دراسة نصوصه نصا نصا وتحديد خصائصه اللغوية بدقة، وهذا يؤدي بنا إلى القول أن الحديث النبوي هو النص اللغوي الوحيد الذي اشتمل على معظم الصيغ والخصائص والظواهر اللغوية العربية إلى حد الشمولية والإحاطة.

قائمة المصادر والمراجع:

-ابراهيم عوض، القرآن والحديث مقارنة أسلوبية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، دط، 2000.
ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح بدوي طبانة، أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، دت، دط.
- ابن الجزري، النشر في القراءات العشر،تح محمد بن محفوظ الشنقيطي، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى، السعودية، 2004.
- ابن جني، الخصائص ، تح محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، مصر، دت، دط .
-ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، ، بيروت ط1، 1997.
- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر ، دت، دط، ج1.

-الأزهري، التهذيب، تح إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب العربي.
الأصمعي، ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه، تح ماجد حسن الذهبي، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 1986.
-البخاري، صحيح البخاري،دار ابن الجوزي، القاهرة،ط1، 2010.
-الجوهري، الصحاح، تح أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1990.
-الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، تح عبد الحميد الهنداوي ،
-دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1، 2003، .
-القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تح عبد الله التركي، بيروت مؤسسة الرسالة.
-بدر الدين الدماميني، سراج الدين البلقيني، الاستدلال بالأحاديث النبوية الشريفة على اثبات
-القواعد النحوية، تح رياض بن حسن الخوام، عالم الكتب،ط1، 1998.
-طالب القيسي، الكشف، تح محي الدين رمضان، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دط، 1974.
-عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ط2، 1982.
-مصطفى الشكعة، البيان المحمدي، الدار المصرية اللبنانية، دت، دط.

الهوامش

1-عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، منشورات المنشأة العامة للنشر والتوزيع، طرابلس، ليبيا، ط2، 1982، ص154.

2 -الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين مرتبا على حروف المعجم، تح عبد الحميد الهنداوي ، دار الكتب العلميةلبنان، ط1 ، 2003، ج1 ، ص207.

3 -ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر ، دت، دط، ج1، ص253. ، بيروت

4 -ابراهيم عوض، القرآن والحديث مقارنة أسلوبية، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، دط، 200، ص9..

5 -ابراهيم عوض، القرآن والحديث مقارنة أسلوبية، ص9..

6 -البخاري، صحيح البخاري،دار ابن الجوزي، القاهرة،ط1 ، 2010،ص175.

7 -البخاري، صحيح البخاري، ص730.

8 -البخاري، صحيح البخاري، ص113.

9 -البخاري، صحيح البخاري، ص116.

10-البخاري، صحيح البخاري، ص840.

11-البخاري، صحيح البخاري، ص352.

12-الأصمعي، ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه، تح ماجد حسن الذهبي، دار الفكر، دمشق سوريا، ط1، 1986،ص68.

13-الأصمعي، ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه، ص56.

14-الأصمعي، ما اختلفت ألفاظه واتفقت معانيه، ص56.

15- بدر الدين الدماميني، سراج الدين البلقيني، الاستدلال بالأحاديث النبوية الشريفة على اثبات القواعد النحوية، تح رياض بن حسن الخوام، عالم الكتب،ط1، 1998، ص7.

16- ابن جني، الخصائص ، تح محمد علي النجار، المكتبة العلمية، دار الكتب المصرية، مصر، دت، دط ، ج3، ص113.

17-ابن جني، الخصائص، ج3، ص113.

18-الخصائص، ابن جني، ج2، ص300.

19- عبد الحميد، الشلقاني، مصادر اللغة، ص167.

20 -ابن فارس، الصاحبي في فقه اللغة، منشورات محمد علي بيوض، دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1997، ص16.

21 -عبد الحميد الشلقاني ، مصادر اللغة، ص157.

22- ينظر ابن الجزري، النشر في القراءات العشر،تح محمد بن محفوظ الشنقيطي، رسالة ماجستير، جامعة ام القرى، السعودية، 2004، ص577.

23-ينظر ابن منظور، اللسان مج6، ص 4864، مادة (وطأ)، الجوهري، الصحاح، تح أحمد عبد الغفور عطار، بيروت، دار العلم للملايين، ط4، 1990، مج1، ص82 .

24- ينظر ابن الجزري، النشر، ص251.

25 -ينظر الأزهري، التهذيب، تح إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب العربي، ج 9، ص 103-106.

26- ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن تح عبد الله التركي، بيروت مؤسسة الرسالة، ج9، ص134، البخاري، صحيح البخاري، ص247.

27 -ينظر ابن منظور، اللسان مج5، ص3398، مادة(فرق).

28 -ينظر طالب القيسي، الكشف، تح محي الدين رمضان، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دط، 1974 ،ج1، ص458.

29 -ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج9، ص135.

30-ينظر ابن الجزري، النشر، ص238.

31- ينظر الجوهري، الصحاح مج3، ص928..

32 -ينظر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج8، ص288.

33-البخاري، صحيح البخاري، ص855.

34-ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح بدوي طبانة، أحمد الحوفي، دار نهضة مصر، القاهرة، دت، دط، ج1، ص8.

35-ابن الأثير، المثل السائر، ج1، ص9.

ا36-بن الأثير، المثل السائر، ج1، ص9.

37- مصطفى الشكعة ،البيان المحمدي، الدار المصرية اللبنانية، دت، دط، ص74.[1]

38 -عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، ص174.

39- عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، ص173.

40-ابن فارس، الصاحبي، ص222.

41-عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، ص166.

42-عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، ص177.

43-عبد الحميد الشلقاني، مصادر اللغة، ص178.

44 -مصطفى الشكعة، البيان المحمدي، ص55.

45-عبد الحميد الشلقاني ، مصادر اللغة، ص177.